العالم إرادة وتمثل عند شوبنهور

أ. محمد علي عبد الصادق*

المقدمة

إن شوبنهور هو أول من وضع فكرة الإرادة بمفهومها الواسع في تاريخ الفلسفة الطويل والمتضمن في كتابه الرئيسي بعنوان:" العالم كإرادة وتمثل"، وهو يعتبر بحق أول محاولة فكرية جادة لموضوع الإرادة، كما يعتبر شوبنهور ممثلاً لمرحلة الرقي في تاريخ الفكر الفلسفي الحديث، وكانت فلسفته تعبر عن واقع عصره، هذا العصر الذي اصطبغ بروح التشاؤم، والعالم في ذلك الوقت يموج بحركة تؤذن بنهايته، حيث تم اتحاد دول أوروبا في مواجهة نابليون الذي هزم في معركة (واترلو)، وبذلك تم القضاء على الثورة الفرنسية.

وكان سبب تمجيد الإرادة عند شوبنهور يعود إلى الإرادة الحديدية لنابليون، كما أن تشاؤمه كان يعكس ما آلت إليه خاتمة نابليون المفجعة. ويمكن أن نطلق على فلسفة شوبنهور بأنها فلسفة "حياة" أوهي فلسفة" الإنسان" بعذاباته، وآلامه، وسروره، بواقعية ومثالية، ونستطيع أن نقول بأنها فلسفة الإنسان المعذب الحائر بين قيم السماء وقيم الأرض، ومن هذا اكتسبت هذه الفلسفة بعداً إنسانياً عميقاً جعلها سهلة الفهم لأنها تتكلم عن الإنسان، وفي الوقت نفسه تتحدث إليه، وهذا الذي يجعلنا نطلق على فلسفة شوبنهور بأنها فلسفة إنسانية إلى أبعد حد حسب تعبير ((نيتشه)). ومن ثم فإن فكرة الإرادة تمثل المكانة العظيمة في مذهب فيلسوفنا، فانطلق منها شوبنهور يفسر الوجود والعالم والإنسان.

---

* كلية التربية– جامعة مصراتة.

فالإرادة من ناحية هي سر الوجود باعتبارها حقيقته وجوهره المعبرة عن ذاتيته وأنيته، وهي مصدر التطور المشاهد في كل مظاهر الطبيعة، بالإضافة إلى أثر الإرادة في اكتسابنا للمعارف والدور الذي تلعبه في مجال المعرفة والأخلاق.

وسبب اختياري لهذا الموضوع أهميته في مجال البحث، بعد الاطلاع على ما أتيح لي من مراجع وإن كانت ليست بالقدر الكافي، ولكن لا يمنع ذلك من تناول هذا الموضوع، وسأتناول فيه الجوانب الآتية:

1- **الجانب الأول:** سألقي نظرة على شخصية شوبنهور، وأتناول قصة حياته لأنها تعكس فلسفته، حيث كان لها أكبر الأثر في تناوله الموضوعات الفلسفية. وأهم نقاطها: عنصرا الإرادة والامتثال وما بالحياة من تشاؤم.
2- **الجانب الثاني:** أوضح طبيعة الوجود عنده، ومن خلال هذا المبحث يتضح أن هذا العالم ليس هو أول العوالم في نظره لما به من شرور وآلام، وما تقوم به إرادة الحياة من تعاسة للإنسان، حيث تجعل حياته سلسلة من الرغبات المحتاجة إلى إشباع، وهي لا تنتهي إلا بمفارقة الحياة حسب رأي شوبنهور.
3- **الجانب الثالث:** أتناول فيه الإرادة بنوعيها: العامة والخاصة، كما أتناول أيضاً الإرادة والعلة والعلاقة بينهما، وكذلك وسيلة الخلاص من كل هذه المعاناة عن طريق الحرية والأخلاق الفردية، كما أعرج على نقد هذه الفلسفة وما بها من نقاط ضعف من خلال تناول شوبنهور الموضوعات الفلسفية، وأختم بحثي بالخاتمة راجياً من الله التوفيق.

الجانب الأول:- مدخل إلى فلسفة شوبنهور

أ- نبذة عن حياته:-

آرثر شوبنهور من الفلاسفة الذين يؤمنون بالميتافيزيقا، فكانت فلسفته انعكاساً لحياته، وخاصة في مرحلة الطفولة والشباب، فالظروف التي تعرض لها في حياته كموت أبيه وهو لا يزال صغيراً، وسلوك أمه المشين مع ما كانت عليه من قساوة جعلت من شوبنهور يعيش في بيئة لا يشعر فيها بالأمان؛ الذي هو في أمس الحاجة

إليه، حيث جعلته ينشأ ذا نفسية معقدة تسيطر عليه الكآبة، فالحياة عنده مجرد آلام، وقسوة، وشر، فظروف حياته القاسية جعلته ينشأ معقداً، منطوياً متشائماً فكانت نظرته إلى الحياة حالكة السواد.

ولد آرثر شوبنهور في مدينة دانسج في الثاني والعشرين من شهر فبراير سنة 1788م، فكان أبوه ثرياً وذلك بسبب امتهانه للتجارة، فكان مهتماً بتربية ابنه وسعى إلى توفير ما كان آرثر في حاجة إليه، ولكن ظروف الغزو من قبل البروستون لمدينته اضطره إلى الفرار إلي مدينة "هامبورج"، وكان عمر آرثر خمس سنوات، وعندما بلغ التاسعة من عمره ارتحل والداه إلى فرنسا وتركاه عند صديق لهما في مدينة "الهافر"، وهو رجل أعمال يدعىM.Gregiane لمدة عامين، وكان شوبنهور الأب يعدُ ولده ليكون تاجراً مثله ليخلفه في التجارة ولكنه كان ميالًا إلى دراسة الفلسفة، فكان يسأل أباه أن يسمح له بدراسة الفلسفة ولكن أباه رفض طلبه. ولم تكن أسرة شوبنهور تعيش في وئام بسبب الصداع العاطفي بين الزوجين حيث كانت الزوجة تؤمن بالحرية الجنسية، وكان لفارق السن بينهما دافعاً لتلك الرغبة، فتوالت خياناتها و أصبحت الحياة بينهما جحيما لا يطاق ، ولم يكن هناك اتزان عاطفي كما أسلفت، " وكان لتلك الخيانة جذورها في تاريخ أسرتيهما فكان يسودهما الكثير من الاضطرابات العصبية والأمراض العقلية "(1)، وفي هذه الدوامة من التوتر و الصراع ينشأ آرثر، ومع ذلك فكان يربطه بأبيه عطف بالغ، ورقة، و إعجاب، و تعلق من جانب الابن، بينما كانت علاقته مع أمه على النقيض من ذلك فكان يشوبها الفتور وكانت الفجوة تتسع عبر الأيام بينه وبين أمه بسبب إهمالها له و انشغالها عنه بملذاتها، و حتى فترات فراغها كانت منشغلة بتأليف القصص والكتب الرخيصة لمضامينها، و كانت مؤلفاتها تلقى رواجاً ونجاحاً كبيرين ولكنه نجاح رخيص.

فقد آرثر أعز إنسان لديه والده من جراء حادث أليم حيث سقط من النافدة فمات على الفور، و يقال أنه مات منتحراً وذلك بسبب ما ذكر، وكان آرثر ابن السابعة عشر

من عمره فكان لهده الحادثة أثر بالغ في نفسيته، وزاد ذلك من تشاؤمه. و كان آرثر ذكياً ناجحاً في دراسته بكل مراحلها، حيث تحصل على الدكتوراه من جامعة "برلين" سنة 1813م تحت عنوان "في الجدر الرباعي لمبدأ العلة الكافية " وقد كان آرثر متأثراً بفلسفة كانط كثيراً، حيث كان يقول عن نفسه: إنه الوريث له، فكان متأملاً في مآسي الحياة ينعى البشرية مصيرها التعس. و هكذا عاش شوبنهور في عالم هو فيه غريب بأفكاره و تأملاته، فكانت نظرته للحياة بأنها عبء ثقيل عليه نتيجة للفراغ و الملل الذي كان يعانيه، فرفض الزواج بسبب تجارب الحياة القاسية التي عاشها. وفي الحادي والعشرين من الشهر سبتمبر سنة 1860م مات شوبنهور في هدوء مخلفاً وراءه ثروة فكرية هائلة أفادت الأجيال من بعده بعد أن ذاعت شهرته في أوروبا وصار له العديد من المتحمسين، و المعجبين، و الأتباع.

وملخصا يمكن وصفه بأنه:((لقد عاش وحيدا بلا أم ولا زوجة ولا ولد ولا أسرة ولا وطن ولا صديق))[2].

. العالم إرادة وليس عقلا:

الإرادة كما يراها شوبنهور تنبثق في كل قوى العالم الطبيعي وفكرة القوة ليست هي جوهر الأشياء الطبيعية ولكنها شكل من أشكال الإرادة فحسب. إننا نفهم أن الإرادة قوة نفسية، تأتمر بالعقل وتصدر أفعالها عن بواعث يتأثر بها العقل بأحكامه، ولكن هذه الإرادة غير عاقلة ، فالعقل ثانوي بالنسبة للإرادة.

إذن فما هذه الإرادة العمياء أن تكون؟ وما علينا إلاً أن نفرق بين نوعين من الإرادة: الإرادة بالمعنى العام، و الإرادة المحدودة بالبواعث والتي تسمى بالاختيار، فهذه وحدها هي العاقلة، أما سابقتها فهي ليست عاقلة، لأن الإرادة المحدودة تؤدي عملها تبعا لبواعث، والبواعث امتثالات، والامتثالات مركزها المخ والأجزاء التي تتلقى أعصاباً من المخ، فهي وحدها التي تخضع للبواعث، أو ما يقوم به الإنسان من حركات على أساس هذه البواعث، فهي وحدها المنتسبة إلى النوع الثاني من الإرادة، ألا وهي الإرادة

المختارة، بينما الأفعال التي لا تصدر عن البواعث فتنتسب إلى الإرادة بوجه عام، ولهذا فإننا نضيف الإرادة بهذا المعنى إلى الكائنات التي لا امتثالات لها، وبوسعنا التوسع أكثر في معنى الإرادة حيث يمكن إضافتها إلى كل موجود، والإرادة قد تحققت في مظاهر متعددة في الحياة.

فالإرادة هي القوة التي ينمو بها النبات ويزكو، ويتبلور المعدن، وهي التي توجه الإبرة الممغنطة صوب الشمال، وبها تتجاذب الأجسام وتتنافر، و تتجه إلى مركز الأرض في الجاذبية، والظواهر الكونية المختلفة هي مظاهر الإرادة. الإرادة الواحدة التي تبدو في مظاهر عدة، فالفيلسوف يجب أن ينفد من التعدد إلى الوحدة المختفية وراءه لترد كل القوى المؤثرة في الطبيعة إلى قوة واحدة " أن تعرف الواحد في الظواهر المتعددة والمختلف في المتشابهات ذلك شرط للتفلسف كما قال ذلك مراراً أفلاطون "(3).

وإذا أردنا أن نوضح معنى الإرادة فإننا نقول: إن الإرادة كالجسم المضيء بذاته، والمعرفة أو الذات العارفة من حيث هي عارفة أي من حيث هي عقل كالجسم العاكس للضوء حسب رأي شوبنهور، ولنا أن نقول وبطريقة أوضح وأدق: إن الإرادة كالجذر في النبات، والمعرفة أو العقل كالتويج، فالأول جوهر، والثاني ثانوي، لأنه بالأول حياة الثاني فيمكن الاستغناء عن التويج، والتويج الكبير ينشأ دائما عن جذر كبير، وكذلك بالنسبة للإنسان تقوم الملكات العقلية على إرادة قوية عارمة، فعلينا نحن البشر أن نسترشد بما جاء به شوبنهور لنتعامل بالإرادة الخيرة فيما بيننا.

ولكن الإرادة كما يراها شوبنهور هي مبدأ كلي، أو بمعنى آخر إرادة كلية، وهي لا تخرج عن كونها قوة عمياء تكوّن الموجودات على التوالي، و العقل يكون أداة لها يأتمر بأمرها، ولذلك فإن كل صور الحيوان أو غيرها قد وهبتها الطبيعة أو بالأحرى الإرادة التي تبدو في ثوب الطبيعة، فليس يطير الطير لآنه يمتلك أجنحة ولكن أجنحته تنمو وتتطور كوسيلة لإشباع أسلوبه في الحياة وهو الرغبة في الطيران: والمتتبع لسلم الحيوان مثلاً من أعلى إلى أسفل نرى مستوى العقل يقل شيئاً فشيئاً كلما هبطنا في سلم

الكائنات الحية، ويصير أكثر نقصاً ولكن لا نجد نقصاً يقابله في الإرادة، بل نجدها واحدة متساوية الدرجة، ولها تعلق شديد بالحياة، فالاهتمام بالفرد أو بالنوع، وبالميول أو الوجدان والعواطف اهتمام فرعي، فالحشرة على سبيل المثال عندها الإرادة كاملة كما في الإنسان وليس هناك من فارق إلا في موضوع الإرادة، أي في البواعث عليها، لأن هذه من شأن العقل، أما من حيث درجة الإرادة وقوتها فالحال واحدة في الإنسان وفي أدنى المخلوقات، لأن الإرادة إذا فعلت بتمامها وهي بسيطة فلا تقبل وجود درجات في أفعالها من حيث جوهرها، و إنما توجد درجات فيها من حيث الحالة التي تتأثر على نحوها، أما العقل فله درجات في طريقة التأثير أو في جوهره، فالتأثير يبدأ بسيطاً ويصل إلى درجة الحماسة والحدة، وفي الجوهر يختلف ابتداءً من الحيوان المنحط الذي لا يدرك إلا بصعوبة حتى يصل إلى الجنس البشري، ابتداءً من الأبله إلى العبقري والعلة في هذا أن الإرادة بسيطة كل البساطة لأنها عبارة عن رغبة أو لا رغبة، ولا تحتاج من أجل التنفيذ إلى مشقة، بينما العقل له الوظائف العدة كلها شاقة مضنية من انتباه وتحديد لموضوع المعرفة، ولهذا " فإن العقل الذي يكد ويجد في الوصول إلى حل مشكلة من المشاكل ويبذل في الحل أقصى الجهد والعنت يقدم النتيجة بسيطة إلى الإرادة، وهذه الحركة بسيطة واحدة توافق أو ترفض ثم تستمر في سكونها وراحتها العميقة[(4)]،((فإرادة الحياة وإن تعددت مظاهرها وأشكالها والتي تعلن بها عن نفسها وإلا فعلام كل هذا الجزاء؟ ولماذا كل هذا العذاب والألم؟ كيف ندرك العالم؟ وما قيمة هذا الإدراك؟ إن الإحساس حالة ذاتية ولكن الفهم يصيغه فوراً بفعل الإرادة اللاشعورية إلى علة خارجة نتصورها فاعلة في الزمان مستقلة عنا في المكان، فالعالم بالنسبة إلينا جملة تصوراتنا فحسب، غير أن هذه التصورات مرتبطة بمبدأ السبب الكافي))[(5)]. فالعقل يتعب بينما الإرادة لا تعرف التعب لأن العقل يقوم بجهد عنيف في الموازنة والتقدير، في حين أن الإرادة تؤدي إلى كل شيء في يسر، والعقل ككل موضوع طبعي خاضع بقوة التصور الذاتي فلا يعمل إلا إذا دفعته الإرادة التي تسوده، وتقوده، وتحدده،

وتقويه، ولهذا فإنه يميل إلى الكسل، والاطمئنان، والخمول، فقولنا: إن الإنسان حيوان كسول تصديقا لذلك، لأن الكسل من شيمته، فما يميز الإنسان عن غيره إلا العقل. ((الإرادة هي جوهر وجود الإنسان ففيها يجد الإنسان، بالتأمل الباطن المباشر الجوهر الباطن الحقيقي للإنسان، والذي لا يمكن أن يصفي، وهي البذرة والحقيقية الوجودية في الإنسان، فالإرادة هي الشيء في ذاته، والإرادة هي الجوهر الخالد الغير قابل للفناء عند الإنسان ومبدأ الحياة فيه))[6]، فكل عمل عقلي يقوم به الإنسان يترتب عليه تعب شديد ولا يستطيع الاستمرار في مزاولته إلا بعد فترات كافية من الراحة والاستجمام وإلا تعرض للجنون؛ وليس ذلك ناشئاً عن الشيخوخة كما يرى شوبنهور بل عن الإجهاد بل الجهد العقلي المستمر، فليس غريباً أن نجد كثيراً من العباقرة قد انتهت حياتهم بالجنون،((تأمل في كفاح الناس لتأمين طعامهم وزوجاتهم وأطفالهم يمكن أن يكون هذا من عمل العقل؟ كلا ولا ريب والسبب هو إرادة الحياة النصف واعية أداة الحياة كاملة وقد يبدو للناس أنهم مسحوبون من الأمام والواقع أنهم مدفوعون من الخلف))[7].

وخلاصة القول أن العالم إرادة وليست عقلاً، لأن العقل كما أكد شوبنهور مراراً ثانوي وهو أداة للإرادة فهو يأتمر بأمرها كما ذكرنا ذلك سابقا، "ذلك لأن الإنسان ليس عقلاً فحسب بل هو فرد في هذا العالم يمتد بجذوره فيه على هيئة بدن(جسم)"[8].فإنهما يمثلان جوهرين ولكل جوهر وظيفته في هذه الحياة ثم يفترقان بانقضاء الأجل

- **عنصر التشاؤم عند شوبنهور:**

التشاؤم هو لغة استعداد نفسي لرؤية الجانب السيئ من الأشياء، وضدها التفاؤل، وفلسفياً مذهب يقول إن الشر في العالم أكثر من الخير. ومن أنصاره أبو العلاء المعري قديماً، وشوبنهور حديثاً، "ومهما يكن من أمر ليس بوسعي إلا أن أقول أن التفاؤل حيث لا يكون مجرد غياب للتفكير عند رجال ليس في رؤوسهم سوى كلمات، ما هو إلا طريقة تفكير حمقاء، وفوق ذلك حقا شائنة سخرية مريرة من الشرور غير المسماة التي تثقل كاهل البشرية"[9].

وكثيراً ما أطلق على شوبنهور أنه فيلسوف التشاؤم، وهذا صحيح إلى حد بعيد، والحقيقة أنه لم يوجد نسقي "مذهبي" أعطى لنا مثل هذا العرض المتقن للتشاؤم التجريبي والميتافيزيقي كشوبنهور.

فهذا التشاؤم له جذوره المتأصلة في حياة شوبنهور الشخصية، ولو أن شوبنهور ليس هو فيلسوفنا ما كانت فلسفته بهذا النمط أو الشكل الذي ظهرت به، ومن خلال تتبع حياة شوبنهور وما قاساه من معاناة من وحدته وشعوره بالخوف الذي لازمه طوال حياته، حيث كان فاقداً لحنان الأم وعطفها مع فقدانه لأبيه وهو في مقتبل العمر كما ذكرت سابقاً زاد ذلك من معاناته وأصل فيه التشاؤم، فكان يميل إلى الوحدة والنفور من الناس، حيث كان كل ذلك سبباً في انطوائه ودفعه إلى التأمل في مآسي الحياة، وكثيراً ما كان يحب الانزواء في الأمكنة الهادئة البعيدة وهو غارق في التأمل في الحياة وينعى البشرية مصيرها التعس، وهو يردد عبارته الحزينة الخالدة: "ها أنا أسمع أبواق الشهرة ترفع من شأن التوافه والبلهاء، بينما أنا أقف منزوياً في الظلام لا يسمعني أحد، أنا الذي رفعت قناع الحقيقة إلى أبعد مما بلغه أي إنسان"[(10)].

كما ربط شوبنهور التشاؤم بمفهومه الإرادة، فهي مصدر الشر في العالم، ومصدر جميع الشقاء والبؤس الذي يحيط بالبشرية. وباعتبار الإرادة هي جوهر الوجود، والمبدأ الميتافيزيقي للعالم – باعتبار ذلك كله–صبغ شوبنهور فلسفته وخاصة الأخلاق بصبغة تشاؤمية عميقة، وهذا ما جعله يعتقد بأن الإنسان لا يجد لنفسه الخلاص إلا في التغلب على الإرادة الكونية العمياء.

وهكذا عاش شوبنهور في عالم هو فيه غريب عنه بأفكاره وتأملاته، بيأسه وتشاؤمه، فإن الناس لم تكن تعي بأنه ينعى إليهم وجودهم. (والتراث الأدبي غني بشعراء متشائمين من خلال تعابيرهم الشعرية التي ضمنوها أشعارهم، ولكنهم كانوا كمن رأى سيول النور ولم ير الشمس، وأدرك المظاهر المتعددة ولكنه لم يضع يده علي سر الحقيقة الواحدة، فبدا له العالم خليطاً هائلاً من الأسرار والألغاز التي تكاد أن ترتبط

فيما بينها وبين البعض الآخر في ارتباط عجيب أما الذي فهم كلمة السر وقبض بيمينه على مفتاح اللغز فشوبنهور، هو وحده الذي اكتشف ينبوع الشر في هذا الوجود، وفسر كل ما فيه من مظاهر تبعا لهذا الأصل، حيث بنى مذهباً فلسفياً كاملاً على أساس ما دعاه إليه سر هذا الوجود من الوقوف موقف التشاؤم، بينما الشعراء هم شعراء فحسب مهما تعمقوا في هذا المعني أو ذاك،((يوجد بين تشاؤم شوبنهور الفلسفي والتشاؤم الشعري تشاؤم ثالث نستطيع أن نسميه باسم التشاؤم النفساني، وهذا الذي يقوم على التحليل النفسي الدقيق لمزاج المتشائم وإحساسه بالشر والألم، أو الخير والشر، وما يدور في نفسه من هواجس و خواطر، وما يسود روحه من نغمة مسيطرة ، وانفعال مستمر، والمتناول لأحوال الناس في طباعهم و اجتماعهم، فيفضح ما اشتملت عليه من خسة ونفاق، ومن غرور وادعاء، لكنه لا يتحدث عن مخازي الإنسان ومساويه، فالناعي لها التاريخ على ما هي فيه من بؤس وشقاء، فهو تشاؤم صادر عن إفراط في الحب، بينما تشاؤم شوبنهور والشعراء يستوحي الكراهية للناس ويستلهم شيئاً من التشفي مما هم فيه، ولهذا كان في لهجته حزن المشارك في الألم لا تمرد المحنق المنتقم كما لاحظ "لويجيتوفلي " بحق وأبعد ما يكون عن هؤلاء المتخلقين الذين يجدون لذة ومتعة في سردهم إياها في قسوة وبرود، فإن شئنا أن نعد التمرد عنصراً جوهرياً في التشاؤم فمن الخير – كما ذهب إليه كثير من النقاد المحدثين– ألا يعد تيوبردي من بين المتشائمين الحقيقتين، ولا يدخل في عدادهم بسكال و أمثال بسكال))[11].

ومن البديهي أن تشاؤم شوبنهور يمثل الانعكاس الأيديولوجي لحقبة الثورة الفرنسية و الحقبة النابليونية وحروب التحرير قد انقضت، وكان العالم بأسره في انقلاب دائم طيلة عقود من السنين))[12]. ويبلغ تشاؤم شوبنهور إلى حد أنه لم ير في الحياة أي خير فقد كان يقول: الإنسان لو حول إرادة الحياة إلى إرادة الموت، ولو امتنع بالإرادة عن الزواج و التناسل لوضع حدا لآلام الحياة للوصل إلى مرحلة اللاشيئية مرحلة العدم. و شوبنهور رفض النظرية الهندية في تناسخ الأرواح كما رآها من قبلهم

أفلاطون معللا ذلك بأن الآلهة لا تقبل النفس أو الروح بالمعنى اللغوي إلا عندما تكون نقية صافية، وهذا لا يتم في نظره إلا بتنقلها من جسد إلى جسد حتى تنقى وتصفى مما علق بها من آثام عند وجودها في الجسم أو البدن السابق، ولو اضطرها ذلك إلى الدخول في أجسام حيوانات مختلفة.

الجانب الثاني :ـ طبيعة الوجود

أ. هل هذا العالم أفضل العوالم الممكنة ؟

يجيب شوبنهور عن هذا السؤال بأن هذا العالم لم يكن أفضل العوالم الممكنة، وأكد ذلك من خلال الأحداث التي مرت به منذ طفولته، وهذا أيضاً ناتج بسبب الظروف القاسية والمريرة التي عاشها وقاساها أثناء حياة اجتماعية مفككة خالية من الجو العاطفي، والدفء، والحنان، وتوالت النكبات على شوبنهور من فقدان والده مبكراً، وابتعاد أمه عنه وجدانيا بل قاسى منها الذل و الاستخفاف وذلك بسبب شرودها إلى ملذاتها التي لا تنتهي، كل الظروف جعلت منه إنساناً متشائماً ونظر إلى هذا العالم بأنه مليء بالشرور، والآلام، والمحن، والخير فيه قليل لأن المرء يصعب عليه أن يجد شيئاً من التفاؤل اللهم إلا ذلك التفاؤل البسيط والساذج الذي يتضح عند اتباع حركة التقدم، تلك الحركة التي اعتقدت المبدأ القائل: بأن مسار حركة التاريخ هي إلى الأمام باستمرار. وموقف ليبنتز أيضا على العكس من موقف شوبنهور حول العالم حيث يقول ليبنتز: " إن هذا العالم هو أفضل العوالم الممكنة"[13]،إن هذه نظرة متفائلة ساذجة تسرف في التفاؤل ولا تبصر الشقاء الذي يحيط بالكون أو بالوجود، بينما الهنود ينظرون إلى هذا العالم بأنه أسوأ العوالم الممكنة ولا يمكن أن يوجد عالم أسوء منه، وهذا الرأي يتمشى و موقف شوبنهور بل إن شوبنهور كان متأثراً بالبوذية لأن الحياة في نظره ونظر الهنود قاسية و مليئة بالشرور والآلام، وعلى المتفائلين السذج الذين يذهبون إلى أن هذا العالم ليس إلا خيراً محضاً عليهم أن يقرؤوا قصة " كانديد "لفولتير" حتى يغيروا من مواقفهم الخاطئة، و يرجعوا إلى الطبيعة.

رؤية شوبنهور المتشائمة و مزاجه السوداوي جعلته لا يرى عالمه الذي يعيش فيه إلا شراً، وهو مليء أيضاً بالخيانة وعدم احترام الروابط الاجتماعية والإنسانية، وهذه الظروف وتلك الرؤية المتشائمة جعلته يعيش منطوياً وممتنعاً بل عازفاً عن الزواج لكرهه المرأة لما رآه من خيانة أمه لأبيه حياً وميتاً، وهو عاجز من أن يجد الأمل والرجاء فيما يجد من التعاسة و الألم ووضع بني الإنسان المؤلم ، ولم يقدر على شيء سوى التشاؤم من هذا العالم الملفوف في غلاله من اليأس و الشقاء، حيث كان يشكو هذا العالم وهذه الحياة خالعاً عليها قدراً من التشاؤم الميتافيزيقي الكوني، وكأنه يردد مع ديشان* "زمن الألآم والإغراء، عصر الدموع والحسد والعذاب، زمن التراخي واللعنة، عصر الانحلال المقترب من النهاية، زمن طافح بالرعب، يؤدي كل شيء بغير إخلاص، عصر كذب مترع بالكبرياء والحسد، زمن مجرد من الشرف ومن الحكمة الصادقة، عصر أحزان يقصر العمر، لقد ضاع كل مزاح أو استولت على القلوب عنوة الأحزان والسوداوية، أيتها الحياة التعيسة والبالغة الحزن آن لنا لنكتوي بنار الحرب، والموت، والمجاعة، والفقر، والجد، والليل والنهار تستنزف قوانا"[(14)]، فشوبنهور مقتنع كل الاقتناع بأن كل شيء في هذا العالم يمضي في سبيل الشقاء والأحزان، وأنه لا خير أبداً في هذه الحياة التعسة المليئة بالآلام والبؤس.

وهكذا نجد ذلك في مؤلفات شوبنهور تشاؤماً صريحاً لا خفية فيه كما في كتابه (العالم إرادة وفكرة) وما إن يدخل في طور التأمل حتى يمتلكه الاكتئاب العميق على كل ما في الأرض من بؤس فلا يبصر إلا ويلات الحياة و الوجود، كما أن شوبنهور يعيش ثقافة عصره معبراً عنها بقدر ما كانت بصيرته كاشفة لما سوف يمر بالعالم من أحداث جسام، حيث بعثت روح التشاؤم في القرن العشرين في نفوس البشر فارتفعت أصوات المفكرين والفلاسفة فضلاً عن الشعراء المتشائمين أمثال بيرون، ودي موسيه، وهايته جميعهم يعبرون عن موجة التشاؤم التي كانت سائدة في عصرهم.

---

* ديشان هو أحد أدباء القرن الخامس عشر الميلادي.

ب- العالم شر:-

إذا كان العالم في حقيقته إرادة كما يرى ذلك شوبنهور لابد أن يكون هذا العالم مليء بالآلام والعذاب، لأن الإرادة نفسها تعني الرغبة، وهي دائمة الطلب للمزيد لأنها لا تكتفي بما حصلت عليه منها، فعندما تشيع رغبة يتبرأ من ورائها عدد آخر من الرغبات التي تتطلب الإشباع لأن الرغبة لا نهاية لها ومن المتعذر إشباعها كلها، إنها كالصدقة التي تعطى للفقير وتبعد عنه الجوع اليوم ليواجه الفقر والبؤس غداً.

فما دامت الإرادة تطغى وتملأ شعورنا بالآلام والبؤس وما دامت رغباتنا لا حد لها وفي ذات الوقت نحن خاضعين للإرادة إذن فإننا لن نبلغ السعادة الدائمة و السلام إطلاقا، و إننا لن نقنع إذا حققنا رغباتنا.((لا شيء يقتل المثل من بلوغه و تحقيقه. إن إشباع العاطفة تؤدي في الغالب إلى الشقاء بدلاً من السعادة لأن حاجتنا كثيراً ما تتعارض مع مصلحة صاحبها إلى أن ينتهي الأمر بالقضاء على هذه المصلحة))[15]، فالنفس البشرية تحمل بداخلها متناقضات هدامة، والرغبة المشبعة تولد رغبات جديدة إلى مالا نهاية، والسبب في ذلك هو أن الإرادة لابد أن تعيش على نفسها ولا يوجد شيء بجانبها، وهي دائمة الجوع أي الإرادة، فإن كلاً منا يقاسي الآلام ومستحيل أن يظل فارغاً، كما لا يخلو من الهموم حيث إذا انزاح عن صدورنا هم حل مكانه على الفور هم آخر وهكذا، وبالتالي تكون الحياة شراً لأن الألم، دافعها الأساسي وليست اللذة مجرد امتناع سلبي للألم حيث أصاب أرسطو بقوله: إن الرجل الحكيم لا يبحث عن اللذة، ولكن عن التحرر من الألم والهم، حيث إننا لا نشعر تماماً بما لدينا من النعيم والفوائد ولا نقدرها حق قدرها ونفكر بها باعتبارها شيئا عاديا لا أكثر، لأنها ترضينا بشكل سلبي، وتخفف من عذاباتنا، ولا نشعر بقيمتها إلا إذا فقدناها، فالحاجة، والحرمان، والحزن هي الجانب الإيجابي الذي يتصل بنا اتصالاً مباشراً، فالحياة شر لأن الإنسان لا يكاد يشعر براحة من الألم والحاجة حتى يتملكه الشعور بالملل والسأم ويبدأ في مواجهة المزيد من الآلام(ولقد زعم شوبنهور أن الإنسان لا يستطيع أن يجد

الخلاص إلا في التغلب على الإرادة الكونية العمياء) [16] وهكذا نسترشد بما جاء في قصص الفلسفة لتأكيد ما أشرنا إليه،((وحتى لو تحققت أحلام الاشتراكيين في إقامة المدينة الفاضلة فسيبقى من الشرور مالا يحصه العد، لأن بعضها كالكفاح مثلا أمر ضروري للحياة، فإذا تمكنا من القضاء على كل شر ووضعنا حداً للكفاح في هذه الحياة أصبحت السآمة عبثا لا يحتمل كالألم سواء بسواء))[17].

جـ- الألم وإرادة الحياة :

لقد ذهب شوبنهور إلى أنه كلما زادت معرفة الإنسان زادت آلامه، و أن أرقى الكائنات نظاماً هي أكثر تعرضاً للألم، وبالمثل كلما زادت معرفة الإنسان زادت شروره، والدليل على ذلك لأنه أرقى المخلوقات حيث هو وحده الذي يتمتع بأعظم الفرح وأشد الحزن والألم، حيث كان فولتير محقاً عندما آثر بنفسه شقاء الحكمة على نعيم الجهل.

ونحن يجب أن نختبر الحياة اختباراً عميقاً وذكياً ولو كان ذلك على حساب ما نقاسيه من الألم، بل يجب أن نجازف ونخاطر في كشف أسرار هذه الحياة ولو كان على حساب فشلنا وخيبة آمالنا، ((لقد مل "فرجل" الذي تذوق كل لذة وعرف كل ترف من كل شيء في هذه الحياة إلا لذة الفهم و بهجة المعرفة))[18].

الإرادة كما وضحها شوبنهور والتي تعني جوهر الوجود وهي سابقة على العقل، بل يعتبر العقل أداة لها، وأن مظاهر الإرادة الكلية هو العقل الآلي، حيث العلة والمعلول من طبيعة واحدة، وحيث يمكن إدراك علاقاتهما مباشرة، ثم تتنوع القوى الطبيعية. كما يتعذر إدراك العلاقات بسبب تباين العلة والمعلول، ثم تظهر الإرادة الكلية واضحة في عالم الأحياء، فالإرادة الكلية هي التي تصور للمخلوق أعضاءه وتلائم بينه وبين البيئة، وهي التي تعمل فيه مستيقظاً أو نائماً وبدون انقطاع، فعلاقة العلية هنا إرادة، والمعرفة ما هي إلا وسيلة للإرادة، تتراءى منها صوراً للحياة أرفع وأقوى. وما العقل إلا آلة للحياة، وهو أعلى تجليات الإرادة، وهو أكثر أحكاماً وتنوعا، مما لدى الحيوان لأن آلة الحيوان ظاهرة وغاياتها معروفة ومحدودة، أما العقل فباطن

يخفي غاياته ويستخدم ما يشاء من آلات مصنوعة، وهذا التنوع في الصور الطبيعية صادر مما في الإرادة الكلية من حب غريزة البقاء وميل لتحقيق أقصى حد، وهذا التنوع هو أصل تعارض الموجودات وتصارعها، وهذا الصراع ناجم عن إرادة الحياة التي تدفعه إلى الصراع من أجل البقاء حتى على حساب هلاك غيره سواء أكان ذلك في النبات، أم الحيوان، أم الإنسان، فما الحروب والتطاحن بين الأفراد والجيوش إلا سبب إرادة الحياة.

فالألم انفعال إيجابي هو ترجمة عن حاجة مفيدة للحياة، واللذة هي إرضاء لهذه الحاجة وتلطيف موقف، لذا كانت انفعالات الألم أقوى في الغالب، نلحظها ولا يلحظ عدم الألم، فإننا لا نلحظ الصحة، والشباب، والسلامة، والحرية حتى نفقدها أو تفوتنا، واعتياد اللذة يقل من حدتها، وانقطاع الشيء المعتاد يخلق آلاماً جديدة، وكلما زاد العقل وقل الشعور اشتد الإحساس بالألم، فألم الإنسان أكثر وأشد من ألم الحيوان، فيتفاوت الناس في عدد آلامهم وقوة شعورهم بها، والشواهد على ذلك كثيرة في هذا الوجود، فكل الكائنات تسعى بدافع إرادة الحياة إلى البقاء، فالإنسان مثلاً نجده يخاف الموت ويسعى بكل الطرق إلى الهروب منها، فالإرادة إذا اندفاع أعمى بلا غاية ولا هدف، حيث نرى الإنسان في هذا العالم يندفع اندفاعاً إلى الوجود ويصارع من أجل البقاء، فإننا نجد كائنات تتوثب في نشوة وحماسة فائقة مؤكدة لذاتها في العيش وصائحة بملء فيها: الحياة الحياة. إنها تعبر عن شعور واحد هو الشعور بالحياة، وتنساق في تيار واحد هو سياق الحياة، ويحدوها ويد فعها دافع واحد وهو دافع الحياة، فهي إذا لا تمثل غير إرادة واحدة ألا وهي إرادة الحياة، وإن تعددت المظاهر التي تتخذها وإلا فعلام كل هذا الجزع؟ ولماذا كل هذا العذاب، والألم، والصراع، والدفاع، والعطف، والإشفاق؟ وتفسير ذلك هو في غاية البساطة ألا وهو الشعور بحياة فردية وبأنها تهدده بالفناء، وعند تأملنا للطبيعة بجميع درجاتها فسنرى حينئذ في الطبيعة كلها غاية واحدة هي حفظ النوع، فما تشاهده من إفراط شديد في إنتاج البذرة، وعنف تملق في الغريزة الجنسية، ومهارة فائقة في

تكييف هذه الغريزة مع جميع الأحوال والظروف، والتجائها إلى أغرب الوسائل وسلوكها أو عبر السبل من أجل مقاصدها، وما يبرز في حب الأمومة من إيثار يكاد أن يصل عند بعض أنواع الحيوانات حد تفضيل الابن على الذات، وكل هذا يدل على أن غاية الطبيعة في كل سيرها ونضالها غاية واحدة هي – كما ذكرنا سابقا – حفظ النوع والامتثال بالتالي لما تفرضه الظروف علينا في هذه الحياة، لأن الطبيعة لا تحفل بالفرد بحد ذاته وإنما كل القيمة عندها أنه وسيلة من أجل الاحتفاظ بالنوع حتى إذا ما أصبح غير قادر على تحقيق ذلك قذفت به إلى الفناء، تلك هي العلة في وجود الفرد.

وإذا تعمقنا أكثر في الطبيعة ونظرنا إلى حياة كل نوع من أنواع الكائنات وتأكدت لنا إرادة الحياة التي تدفع حيوان "الخلد" مثلاً وهي تلك المخلوقة العمياء التي تعيش تحت الأرض ولا عمل لها طوال حياتها سوى أنها تحفر الأرض بمشقة بواسطة أقدمها و تحيا في ليل مستمر، فهي تعد الحيوان الليلي الأول إنها لا هدف لها سوى الغذاء والجماع أي ما يحفظ نوعها فحسب؛ فما يصدر التعلق الشديد بالحياة فليس مصدره العقل والتفكير، فقليل من التأمل كاف لإقناعنا بأن الحياة ليست خليقة بشيء من الحب والاستمرار، وليس من المؤكد أن الوجود خير من اللاوجود، بل لعل العكس هو الصحيح، بل هو امتثال لما تمليه علينا الطبيعة بظروفها المختلفة ولو مررنا بالمقابر وسألنا أهلنا عن ذلك لما اختاروا هذه الحياة الفانية المليئة بالآلام، والشقاء، والتعاسة، والبؤس، وما تعلق المرء بالحياة إلا نتيجة لإرادة الحياة العمياء غير العاقلة والمستمرة في تيار الزمن اللانهائي. وعبر عنه شوبنهور بالعالم الموسيقي حيث قال : (يمكننا إن نسمي العالم موسيقى متجسدة مثلما يمكننا أن نسميه إرادة متجسدة)[19].

الجانب الثالث: الإرادة عند شوبنهور

أ–الإرادة والعلة:

الإرادة كما يرى شوبنهور هي الجوهر الباطن بكل شيء، وهي الشيء في ذاته. كما يصفها بأنها الجوهر الخالد غير القابل للفناء، وهي مبدأ الحياة في الإنسان،

"الإرادة قوة نفسية تأتمر بالعقل وتصدر في أفعالها عن بواعث يمليها العقل بأحكامه "[20]. وبالفعل نرى أنها كذلك كما يشاهد في هذا الكون من تأثير العقل على الإرادة والتزامها بما يأمرها به.

ويرى شوبنهور بأن هناك نوعين من الإرادة: فهناك إرادة عاقلة وأخرى غير عاقلة، وهذه الأخيرة يكون العقل فيها ثانوي بالنسبة للإرادة، والإرادة العاقلة هي التي يطلق عليها بالاختيار، وهي تؤدي عملها تبعاً للبواعث كما أسلفنا القول وهي التي تتلقى أعصاباً من المخ، وهي التي تخضع للبواعث والحركة التي يقوم بها الإنسان على أساس هذه البواعث، فهي وحدها المنتسبة للإرادة المختارة، ولكن الأفعال التي لا تصدر عن شوبنهور بمقولات كانط الاثني عشر ومن بينها العلة بالإضافة إلى صورتي الزمان والمكان فهي تمثل الجانب الذاتي، وكيفية اكتسابنا لمعارفنا فهي ذاتية لا وجود لها خارج الذهن، وأنها تصاغ منها كل تجربة ممكنة يدركها الإنسان، فكل ما حولنا وما يخطر ببالنا وما يتراءى لنا بطريق مباشر أو غير مباشر فهو إما علة أو معلول، وهو يحتل مكانا ويجري في زمان، وعن طريق هذه الصور الثلاث ينظم ذهننا العالم الخارجي، وكذلك العلاقات بين الأشياء فيه، وهذه المعاني الثلاثة ليست مستمدة من التجربة بل إن التجربة لا تكون ممكنة إلا إذا صيغت فيها، فتلك الصور الثلاث إذن أولية حسب لغة كانط والتي تأثر بها شوبنهور وكانت دافعا لأن يتخذ في الحياة موافقة المتشائمة.

وعليه بين شوبنهور تلك الصفة التي تكون الأشياء بموجبها معتمدة على الذهن ومرتبطة ببعضها في الإطار الذهني، لأن الأشياء تخضع لمبدأ السبب الكافي والعلة الكافية.

ولهذا المبدأ أربعة مظاهر: "هي التي تكون أصله الرباعي، ولها مظهر التغيير فهو يتخذ أولاً مظهر قانون العلية الذي يعزى إليه تغيير الظواهر ويربطها بعلاقة المعلول، وهو يتخذ ثانياً مظهراً منطقياً مجرداً تكون فيه المقدمة المنطقية علة أو أساسا

للنتيجة، ومظهره الثالث هو الوجود في الزمان والمكان كما هو الحال في قضايا الهندسة التي تؤدى فيها إحدى العلاقات إلى علاقة أخرى بالضرورة، وأخيراً يتخذ مظهراً نفسياً أو أخلاقياً من الإنسان حيث يؤدي الباعث المعين إلى ظهور فعل معين، وهكذا فإن مبدأ السبب الكافي يتناول الصورة التي تمثل العالم عليها، وهو يتعلق بشكل العالم كما يتراءى لنا، أي بالطابع الذي يضفيه ذهننا عليه، ولأن وجود كيان باطن وراء هذا الشكل فهو الذي أطلق عليه كانط اسم "الشيء في ذاته، فهو قلب الوجود الحقيقي أو جوهره، خلافاً لما يبدو عليه الوجود لإدراكنا، والشيء في ذاته تقابل الإرادة عند شوبنهور" ((بيد أن المادة فكرة من أفكارنا فما المادية إلا تصورنا للعالم وما العالم، إلا الوجهة الخارجية للوجود، ولو كنا ذاتا عارفة فحسب لما عرفنا عن العالم سوى أنه تصور، ولكننا نحس في أنفسنا غرائز وميولاً، وندرك أن الإرادة جوهر الإنسان وفقا للصور الرائعة من صور الفهم، فيجب وصل التجربة الظاهرة بالتجربة الباطنة، وفهم العلم بواسطة الإنسان، وحينئذ ندرك أن الأداة جوهر العالم أيضاً وأن العلية الطبيعية في مختلف درجاتها من جنس إرادتنا، فالإرادة هي الشيء بالذات يتجلى في مختلف الموجودات))(21).

يؤكد شوبنهور بأن الصلابة، والليونة، والمرونة، والمغناطيسية هذه القوى كلها عبارة عن مظاهر مباشرة للإرادة، كما أن أفعال الإنسان المختلفة هي الأخرى مظاهر للإرادة فإنها لا علة لها.

ويؤكد شوبنهور بأن الصلابة والليونة والثقل أو المغناطيسية أو الكهربائية فآثارها تنتج عن مبدأ العلية وتسير على هذا القانون، أما هي فليست آثاراً لأية علل، بل إن كل قوة طبيعية هي خارجة عن سلسلة العلل والمعلولات، ولأنها كذلك فإنها خارجة عن الزمان والمكان، والقوة الطبيعية العامة تظهر بتمامها في كل ظاهرة، وليست فردية أو شخصية بل هي نوع خاص، حيث إننا نجد كلما ارتفعنا في سلم الصورة بدأ طابع الشخصية أو الفردية أكثر ظهوراً، والنظام الذي تسير عليه هذه

المظاهر في اتخاذها أشكال هذا التعدد يحدده قانون العلية بدقة، وكل هذه القوى الطبيعية واللاعضوية هي أيضا مظاهر للإرادة، وما نجده في الطبيعة من نزوع، أو انجذاب، أو فرار، أو تنافر فما هو إلا أشكال فيها يبدو نزوع الإرادة إلى البقاء والحياة والوجود وامتثال لما تمليه الحياة علينا.

"وما نجده من اتحاد كيميائي بين العناصر فمصدره هذا التجاذب أو النزوع وعدم قابلية بعضها للاتحاد مع البعض الآخر يمكنه التنافر والجاذبية فواضح ما فيها من انجذاب ونزوع"(22).

ب- الخلاص بالحرية والأخلاق الفردية:

يرى شوبنهور أن الخلاص من هذه الحياة يكمن في انصرافنا عنها، والسبيل إلى ذلك هو أن نميت فينا كل رغبة، وننكر إرادة الحياة، ونعمل على الفرار من قبضتها، وحتى لو كان هذا الفرار إلى العدم فالعدم خير من تعاسة وشقاء الحياة، والتلاشي في اللاشيئية أفضل من التواجد في عالم الوجود، والخطأ الفطري الذي يعتقده الإنسان هو أننا نوجد لكي نكون سعداء، وهذا الخطأ الفطري مركب فينا لأنه ليتحد ويطابق وجودنا نفسه، ودواتنا جميعا ليست إلا تفسيراً له، حقا إن جسمنا هو العلاقة المميزة له في تمكن اللاإرادة للحياة ونحن لا نفهم من السعادة إلا الإرضاء المتعاقب لإرادتنا، وعند نظرتنا إلى العالم فإننا نجده يتراءى لنا كأنه مليء بالمتناقضات، لشعورنا بأن كل الأشياء كبيرها وصغيرها وكذلك التجارب المتصلة بنا بأن العالم والحياة لم ينظمها بالتأكيد بغرض ضمان أو استمرار وجود سعيد لنا، فإن كل يوم يمر من حياتنا قد علمنا حتى في الحالات التي تتحقق فيها أفراح ولذات تكون تلك خدعة ولا تؤدي إلى النتائج التي تعدنا بها ولا ترضي قلوبنا، والحصول عليها يقترن بالمرارة التي يبحثها ما يرتبط بها أول ما نفعله هو الهروب من العالم، والأفضل لو لم نأت إلى هذا العالم البتة.

ويرى شوبنهور أن اللجوء إلى الانتحار ليس هو وسيلة للخلاص والهروب من الحياة بل أنه يؤكد إرادة الحياة لا إنكاراً لها، والموت أيضا ليس هو الحل، لأن موت الفرد يقابله مولد فرد آخر ليأخذ مكانه، وليس هناك في الموجودات عاقل في العالم سوى الإنسان، فلو أن كل البشر أنكروا إرادة الحياة فإن العالم يمضى خارج الوجود وسيسود الهدوء والسكون الأزلي وكل شيء في الكون، والحياة مصدر تعاسة للإنسان فلا بد من السعي للوصول إلى التخلص منها على أن الحل ليس في الانتحار لأنه لا يفي بالغرض، فالمطلوب هو حل المشكلة حلاً نهائياً وهذا الحل لن يكون إلا عن طريق الانتحار الكوني للتخلص من المعاناة في هذا العالم وذلك بالتغلب على الرغبة وإرادة الحياة والانتصار على الإرادة الكونية العمياء، ومع كل ما تحمله لنا الحياة من تعاسة وبؤس وشقاء نخاف الموت ونعتبره أعظم الشرور، لأن الفرد ينتهي على يد الموت، ولأنه بالموت يتلاشى وجوده فحسب ويبقى النوع، ومن ثم فإن الإفناء الإرادي للوجود الظاهري للفرد هو عمل لا غاية من ورائه، ذلك أن الشيء في ذاته يظل كما هو دون تأثر، والإرادة ليست قابلة للفناء فالإنسان يمكنه أن ينهي حياته ولكنه لا ينهي إرادته.

فشوبنهور كان متأثراً بالبوذية فهي ترمي إلى الفناء التام للخلاص، بينما المسيحية ترمي إلى كبت الغرائز الحسية لإطلاق الحرية للحياة الروحية والاستزادة منها إلى أبعد حد. يقول شوبنهور: فقديماً رفع أفلاطون وأرسطو حياة الحكومة فوق الفضائل الأخلاقية[23].

كما يرى آرثر أن المسيح عليه السلام كما صورته الكتابات المتأخرة عنه هو المثل الأعلى الذي نفهم مذهبه حق الفهم، لأنه ضحى بجسمه الذي هو كمعلول إرادة وقتل في نفسه إرادة الحياة، فإنه يكون بذلك في معراج السالكين فيظل ببدنه وطبيعته إلى أفكار المطلق والزهد الخالص في الوجود، واستحال بعد ذلك إلى درجة العقل الخالص، وإلى مرآة صافية باستمرار، يتجلى فيها العالم فلا يهتز لشيء ولا يجزع من أي حادث بعد تخلصه من الأنانية والذات. ويرى أن ألم أخيه الإنسان وشره ومعاناته

معاناة له، فيفرح لفرحه ويحزن لحزنه وبذلك تصبح كل الخيارات الدنياوية التي تبدو أمامه أوهاماً أمام عينيه وكانت من قبل تثيره وتهز كيانه، وتبدو له الحياة بأسرها كما تحلق أحلام الصباح أمام ناظري الناعس حتى إذا ما استيقظ يقظة كاملة تبددت تلك الأحلام كما يتبدد الظلام أمام ضوء الشمس، وإذا بالوجود بأسره يحلق في ضباب العدم الكثيف، لأن هذا الوجود هو العدم.

يدعو شوبنهور الإنسان إلى أن يحقق الخلاص بقوله: فأنت وحدك القادر عليه، وكل كائن ينتظر خلاصه على يديك أيها الإنسان، والوجود يتضرع إليك متلهفاً راجياً أن تنزل وإياه إلى هاوية العدم.

الخاتمة

من خلال نقاط البحث الأساسية التي وردت في هذا البحث يمكن استنتاج واستخلاص ما يأتي:-

1- فلسفة شوبنهور فلسفة إنسانية، وذلك لإصراره على أن الفلسفة يجب أن تعالج علل الإنسان. ولم تكن بأسلوبه عبارات معقدة، ويرمي من وراء ذلك إلى فهم الناس للفلسفة، ويحفزهم إلى بدل الجهد إذا أرادوا الوصول إلى الحقيقة، ويبث فيهم الشجاعة الكافية وذلك لكشف حقيقة وجودهم، ولعلي أتمثل بقول تولستوي عن شوبنهور حيث قال: هذا فيلسوف يتحدث عن الحقيقة بأمانة، ويحتقر التفاهات والمغالطات المبهمة الشائعة بين الفلاسفة المحدثين.

2- تناول شوبنهور فكرة الإرادة، فكانت أفكاره مترابطة ومتماسكة، وهي ترتبط بين مقولة الإرادة كمقولة ميتافيزيقية أولية بكل من آرائه الطبيعية ونظرته في المعرفة والأخلاق.

3- إن أصالة الفلسفية ترجع إلى أنه رد الحياة والوجود إلى مبدأ واحد كلي شامل هو "الإرادة"، حيث جعل منها المبدأ التفسيري الذي يكمن وراء ظواهر الوجود، فالمذهب الإرادي له بدوره في الفلسفات السابقة على شوبنهور، اتضح ذلك في فلسفات الرواقيين، ودانزسكوت، واسبينوزا، وكانط، ولم تكن كافية لتكوين مذهب إرادي كامل

لديهم، ولكنها عند شوبنهور أصبحت مبدأ ميتافيزيقياً للكون ككل، فيما أسبغ " فيختة " صفة المعقولية على الإرادة فجعلها شوبنهور لا عقلية ولا شعورية، لا هدف لها ولا غاية، وهو بذلك يجسد الاتجاه اللاعقلاني، وهو واضح كل الوضوح في فلسفته.

4- نزعة اللامعقول المتطرفة عند شوبنهور، حيث تمثل تياراً جديداً وقوياً قضى به شوبنهور على سيادة العقل، وجعل للإرادة السيادة في الحياة النفسية وفي الوجود عامة، ولم ينظر إلى الوجود على أنه يسير وفق قواعد منطقية عقلية محكمة، باعتبار أن العقل يحكمه ويسوده، كما يبدو ذلك بوضوح عند الفلاسفة العقليين ومن بينهم كانط، ولم يكن شوبنهور مجرد ميتافيزيقي "عبثي" يسعى إلى هدم الحقيقة التي وصفها معاصروه بأنها "عقلانية" فهو في نفس الوقت طبعي، فإن تصوره للحياة الشعورية عند الإنسان كنتاج ثانوي للإرادة، فهو يستعمل المعطيات التجريبية التاريخية والبيولوجية ليبرهن على أن إرادة الحياة هي القانون الأساسي للحياة ذاتها.

5- ففكرة الإرادة عند شوبنهور بلغت من الاتساع والعمومية ما جعلها صعبة التحديد لمدلولها، كما أنه حاول أن يشرح ماهية هذه الإرادة وإبراز خصائصها وصفاتها، ولكنه لم يكن شرحه لمعناها كافياً ومحدداً، فهو لم يقصد منها إلا أن تكون نواة لمذهبه، ويفسر على أساسها كل مظاهر الحياة والوجود، فهي تبرز وراء كل مظهر، وتراها كذلك في كل الكائنات من الجماد حتى الإنسان، حيث نجدها في الطبيعة ونجدها أيضاً فيما وراءها، وهي المبدأ الكامن وراء كل معرفة وكل مبدأ أخلاقي.

6- فشوبنهور قدم لنا نظرية معدلة لنظرية كانط المعرفية، والتعديل الذي أدخله شوبنهور يتمثل في احتفاظه "بالشيء في ذاته" وجعله يتمثل في الإرادة، حيث نظر إلى العالم على أنه عبارة عن مجموعة من الظواهر، كما قال بذلك كانط، وليست هذه الظواهر عند شوبنهور إلا مظاهر للإرادة التي هي "الشيء في ذاته". فشوبنهور يقول في ذلك (إننا لا ندرك شيئا في ذاته ولا ظواهر ذلك الشيء إلا في أنفسنا) [24].

7- الأخلاق عند شوبنهور هي أخلاق سلبية في أعماقها، فهي هروب من الحياة، وهذا مخالف لرأي بعض الباحثين عند قولهم بأن فلسفة شوبنهور وتشاؤمه تدفعنا إلى مواجهة حياتنا في ضوء بصيرة كاشفة بأمور حياتنا ووجداننا، ولكن العكس هو الصحيح لأن فلسفة شوبنهور في جوهرها تدعو إلى العدم فهي فلسفة عدمية تدفع الإنسان إلى الانسحاب من الحياة ومن العالم بأسره. وهذا لا يجب أن ينحدر وراءه الإنسان لكي لا يفقد أدميته، وعلى الرغم من ذلك فإننا لا نستطيع أن ننكر قيمة هذه الفلسفة التي أطلعتنا على مآسي وجودنا، والشرور التي يمتلئ بها عالمنا، على عكس المذاهب المتفائلة الساذجة التي تسبح في عالم خيالي وهمي على ظهر الأرض كما صور لنا ذلك أفلاطون وغيره من قبله. كما أكد ذلك ميرلوبنتي بقوله: (والحق أنه من الخطأ أن نجعل الصدارة للذات عن العالم)[25].

التوصيات

1- اتخاذ دروس حياتية مفيدة من قصة وحياة شوبنهور التي عاشها، بأن تكون العلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان مبنية على الصفاء، والصدق، والصراحة حتى لا تحدث فجوات تؤدي بنا إلى مسالك كالتي وجد شوبنهور نفسه يسير فيها، وكذلك أفراد أسرته الذين انجروا وراء الملذات بسبب الفراغ وتفتت الروابط الأسرية.

2- فما علينا نحن المسلمين إلا التمسك بتعاليم ديننا القويم، ففي ذلك شفاء من كل داء، سواء أكان نفسياً، أم أخلاقياً، أم اجتماعياً حتى نسهم في بناء مجتمع خال من كافة الشوائب التي تتفشى في المجتمعات المفككة، ومن ثم زوالها تأكيداً لقول الشاعر أحمد شوقي:

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت   فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

3- لا ننظر إلى الحياة على أنها شر كلها مثلما رأى شوبنهور، بل الحياة مزيج من الشر والخير، ونبحث عن وسائل وأسباب الخير لنسير فيها، ونجتنب السبل التي تؤدي بنا إلى الآلام والشرور لتكون حياتنا مليئة بالسعادة والاستقرار الاجتماعي والنفسي.

4- الملذات لا يجب أن تكون هدفنا الذي نسعى دائما للوصول إليه كما يرى القائلون به.

5- إصلاح الأخطاء مطالب به الجميع لكي لا نرمي أخطاءنا على بعضنا، بل علينا المبادرة إلى الإصلاح لنصل إلى الصلاح ليكتب لنا النجاح والفلاح.

الهوامش

1. السيد شعبان حسن "فكرة الإرادة عند شوبنهور" الطبعة الأولى، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت– لبنان، 1993م ص18.
2. ول ديورانت " قصة الفلسفة" ترجمة فتح الله محمد المشعشع، الطبعة السادسة، منشورات مكتبة المعارف، بيروت – لبنان، 1988م ص390
3. عبد الرحمن بدوي "فكرة شوبنهور " الطبعة الثالثة، دار النهضة العربية، القاهرة، 1965م، ص192.
4. نفسه ص 192.
5. يوسف كرم "تاريخ الفلسفة الحديثة" الطبعة الخامسة، دار المعارف، القاهرة، 1986م ص290.
6. عبد الرحمن بدوي " الموسوعة الفلسفية " الطبعة الأولى، الجزء الثاني، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت – لبنان، 1984م ص33.
7. ول ديورانت " قصة الفلسفة" ترجمة فتح الله محمد المشعشع، ص 401.
8. عبد الرحمن بدوي "الموسوعة الفلسفية" الطبعة الأولى، الجزء الثاني، ص33.
9. جورج لوكاكش "تحطيم العقل" ترجمة إلياس مرقص، الجزء الثاني، دار الحقيقة، بيروت– لبنان.
10. السيد شعبان حسن "فكرة الإرادة عند شوبنهور" ص21.
11. عبد الرحمن بدوي "الموسوعة الفلسفية" الطبعة الأولى، الجزء الثاني، ص273–274.
12. جوجلوكاش "تحطيم العقل" ترجمة إلياس مرقص، الجزء الثاني، دار الحقيقة، بيروت– لبنان ص15.
13. السيد شعبان حسن "فكرة الإرادة عند شوبنهور" ص146.
14. السيد شعبان حسن "فكرة الإرادة عند شوبنهور" ص149–150.
15. ول ديورانت " قصة الفلسفة" ترجمة فتح الله محمد المشعشع، ص16–17.

16. زكي نجيب محفوظ ، الموسوعة الفلسفية المختصرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، مصر ، سنة 1963م ص 196
17. ول ديورانت " قصة الفلسفة" ترجمة فتح الله محمد المشعشع، ص16-17.
18. نفسه ص447.
19. شوبنهور" العالم إرادة وتمثل ، الكتاب الثالث من الجزء الأول فقر52.
20. عبدالرحمن بدوي "فكرة شوبنهور" ص 191
21. يوسف كرم "تاريخ الفلسفة الحديثة" ص289-290.
22. السيد شعبان حسن "فكرة الإرادة عند شوبنهور" ص165.
23. يوسف كرم "تاريخ الفلسفة الحديث" ص293.
24. السيد شعبان حسن ، فكرة الإرادة عند شوبنهور في الطبيعة والمعارف والأخلاق، ط1، دار التنوير للطباعة والنشر بيروت لبنان ، 1993م ، ص 110.
25. زكريا إبراهيم ، دراسات في الفلسفة المعاصرة، دار مصر للطباعة، سنة 1968م، ص 547.